

كيف نشأ احتفال المولد في بلاد الإسلام

العلامة الشيخ محمد الطاهر بن عاشور رحمه الله

المقال مسجل من المحلة الرموزية: عدد حاص بالمولد، الصادر في ربيع الأول عام 1356 هـ الموافق شهر ماي سنة 1937م

معالم الدين نرجو الاستمسك به إذ نقضي
إلى قرأتنا في هذه الكلمة بما جمعنا من ذكر
الاحتفالات المولدية في عصور التاريخ.

ولعل أقدم ما عرف من مظاهر الاحتفال
بهذا اليوم ما كان يفعله أهل مكة من زيارة
المحل الذي ولد فيه النبي ﷺ وكلام
الشهاب القسطلاني في المواهب الملدنية
على إجماله يفيد أن هذا وقع من أجدال
يصح الاقتداء بفعلها وذكر ابن ظهيره في
كتابه الجامع اللطيف أنه وجد هذه العدة
في القرن العاشر يتوارثها الخلف عن السلف
وبحث عن أوليتها فلم يظفر بها.

أما الاحتفال بهذه الذكرى الميمونة
في غير مكة فأول ما ظهر بمصر أثناء القرن
الخامس على عهد الخلفاء الفاطميين
ولم يكن مولد النبي ﷺ عندهم خاصا

إن ما يملأ قلوب المسلمين في اليوم الثاني
عشر من ربيع الأول كل عام من ناموس
المحبة العلوي وما يهز نفوسهم من الفيض
النوراني المتدفق جمالا وجلالا ليأتي إليهم
محملا من ذكريات القرون الخالية بأريج
طيب ينم عما كان لأسلافهم الكرام من
العناية بذلك اليوم التاريخي الأعظم وما
ابتكروا لإظهار التعلق به وإعلان تمجيده
من مظاهر الاحتفالات فتتطلع النفوس
إلى استقصاء خبر تلك الأيام الزهراء
والليالي الغراء إذ المسلمون ملوكا وسوقة
يتسابقون إلى الوفاء بالمستطاع من حقوق
ذلك اليوم السعيد.

وإن في هذا الحديث العذب لسببا تمت
إلى رحاب الفضل النبوي بخدمة من تشرفوا
بخدمته والانتساب إليه وتخليد فضلهم بين

وتقدموا نحو المنظرة بإجلال وتشوف إلى رؤية وجه الخليفة فتفتح إحدى الطاقات المطلقة من المنظرة ويبدو منها وجه الخليفة وتفتح طاقة أخرى فيبدو منها أحد الأستاذين مسلماً على الحاضرين بيده مبلغاً إليهم سلام أمير المؤمنين ويخصص بالذكر وجود الحاضرين بنعوتهم المعتادة ثم يقف القراء وخطباء الجوامع الثلاث الكبرى تحت حائط المنظرة مستقبلين الناس بوجوههم فيتداول الخطباء الخطابة والقراء خلال ذلك يقرأون حتى إذا انتهوا أخرج الأستاذ بيده من الطاقة مسلماً ثم أغلقت الطافتان وانفض الناس وتوزع في ذلك اليوم على الفقراء من النقود والطعام والخلوى مقادير ذات بال يقع توزيعها بالجامع الأزهر وجامع القسطنطينية والقرافة كما يحمل إلى ديار الأعيان والمستخدمين من طرف الخليفة عدد وافر من صواني الحلويات حتى يكون ما ينفق في هذا الموسم الشريف بالغامثات الدنانير وآلاف الدراهم ومئات الآلاف من أرطال الطعام.

بالاحتفال بل كانوا يحتفلون معه بخمسة موالد أخرى هي مولد علي بن أبي طالب ومولد فاطمة ابنة رسول الله ومولد الحسن ومولد الحسين رضي الله عنهم ومولد الخليفة الذي يكون متولياً كل في اليوم الموافق له من أيام السنة.

وكيفية ذلك الاحتفال على ما أورده القلقشندي والمقريزي أن يجلس الخليفة بالمنظرة التي فوق باب الذهب من القصر الكبير وهي أدنى مناظر القصر من الأرض ويكون قاضي القضاة وداعي الدعاة ومفتي الدولة والأشراف ومتولي دار العلم والخطباء والمتصليون بجوامع القاهرة والقيمو على مشاهدتها مجتمعين بالجامع الأزهر يختمون القرآن الكريم موزعاً وعند انتهاء صلاة العصر يجمع مرور الناس في ما بين الجامع الأزهر والقصر الكبير ويقف والي القاهرة وصاحب بابها لتنظيم السير ومنع الازدحام ويركب من كان بالجامع الأزهر يتقدمهم قاضي القضاة نحو القصر الكبير حتى إذا لم يبق لهم عن الوصول إلى المنظرة إلا خطوات ترحلوا

الاحتفالات الشائقة التي قصر وصف
الواصفين عن الإحاطة بها.

وبدأ الاستعداد لتلك الاحتفالات
وتقاطر الوفود لأجلها من أول محرم ولا
تبدئ الاحتفالات إلا اليوم الأول من
ربيع الأول.

فمن يومئذ يعطل جميع الناس أعمالهم
وتقام فيما بين قلعته وقصر الخانقاه قباب
خشبية مزينة ذات طبقات في كل طبقة
منها جوق من أرباب المغاني وأصحاب
الخيال وسائر الملاحى وما يزال دأب الناس
الدوران على تلك القباب وينزل السلطان
كل يوم من قلعته بعد صلاة العصر فيشارك
الناس في طوافهم ومرحهم ويستمر هذا
سنة أيام أو عشرة بحسب اليوم الذي يقام
فيه احتفال المولد تلك السنة لأنه كان يقام
الاحتفال في اليوم الثاني عشر عاما وفي
اليوم الثامن عاما مراعاة للخلاف.

فإذا كان اليوم السادس أو العاشر ولم
يبق للمولد إلى يومان جمعت قطعان كثيرة
لا تحصى من الإبل والبقر والغنم وسيقت
إلى الميدان الأكبر الذي بين القلعة والخانقاه

وقد استمرت هذه العادة طول مدة
الحكم الفاطمي بالديار المصرية حتى إذ
أسقطت دولتهم أواسط القرن السادس
كان هذا في جملة ما أبطلت الدولة
الأيوبية من عوائدهم ومحت من آثارهم.

إلى أن سنة الاحتفال بالمولد النبوي
لم تكد تنقطع من مصر في ظلمة القرن
السادس حتى ظهرت بنواحي الموصل على
صبح القرن السابع ظهورها البين إذ أصبح
الاحتفال خاصا بالمولد النبوي لا كما كان
يفعل الشيعة من إشراكه موالد آل البيت.

وأول ما بدئ ذلك بمدينة أربل بسعي
ملكها ومعلمها الأمير الشاب الشيم
المحسن المتفضل الملك المعظم أبي سعيد
مظفر الدين كوكبوري بن زين الدين
كوجك علي المتوفى سنة 630 ودفن
المشهد العلوي الشريف بالكوفة.

وقد بالغ رحمه الله في تعظيم الاحتفال
بالمولد وتفخيمه حتى كان يهتز ما حول
مدينته من الموصل والعراق وبلاد الكرد
والعجم فتفيض على مدينته وبوفود الفقهاء
والصوفية والوعاظ والقراء والشعراء فتقام

الرؤساء والأعيان والوافدين على بلده فيخلع عليهم حتى إذا كان قرب الزوال وفرغ من عرض الجند أقيم سباطان أحدهما بالميدان لعامة الناس وصعاليكهم والآخر بالخانقاه لمن كان مجلسه حول الكرسي ويقع الإرسال إلى دار من تعين لأن يرسل إليه من السباط ولا ينتهي السباط إلى قرب العصر، ويبيت تلك الليلة بالخانقاه ويقضيها ليلة سماع فاخر إلى الصباح إذ يتجهز الوافدون للسفر فيمده كل منهم بنفقة.

وقد نقل ابن الجوزي عن بعض من حضر هذه الاحتفالات أنه كان يتفق عليها ثلاثمائة ألف دينار وقد كانت هذه الاحتفالات منشأ لتأليف الكتب الخاصة بأخبار المولد الشريف وتلاوتها في الاجتماع لذكرى المولد وذلك أنه في سنة 604 كان من جملة الوافدين على الملك مظفر الدين العلامة الرحالة الحافظ المحدث اللغوي أبو الخطاب محمد الدين عمر بن الحسين ابن دحية البيلنسي الأندلسي الظاهري ثم الحنبلي المتوفى

محفوظة بالقطول وجوقات المغاني والملاهي فشرع في نحرها ونصبت القدور لطبخ الألوان المختلفة من الطعام ويستمر النحر والطبخ متواليا وفي ليلة المولد يصلي المغرب بالقلعة ثم يقيم بعد الصلاة مجلس إنشاد وذكر حافل ومنه يخرج في موكب بهيج تتقدمه منات من الشموع العظمى موقدة فيخترق الميدان الأكبر حتى ينتهي إلى الخانقاه. وفي صباح يوم المولد يقيم بالميدان مجمعا حاشدا يضم الأعيان والرؤساء وعموم الناس من أهل بلده والوافدين عليه وينصب كرسيًا للوعاظ وموضع لجلوسه هو على شكل برج من الخشب ولكل من كرسي الوعاظ ومقام الملك شبابت على الميدان ويكون جلوس العلماء والأعيان حول مجلسه وكرسي الوعظ، ثم يبدأ في عرض الجند بالميدان ويتخلل ذلك العرض قيام الوعاظ من كرسيهم لوعظ الناس والملك مشرف على عرض الجند مرة ومصغ إلى الوعاظ أخرى.

وفي أثناء ذلك ينادي الحاضرين من

أبو موسى ابن الإمام ونقل الخطيب ابن مرزوق أن بعض العلماء أنكر ذلك إلا أنه استظهر قول ابن الإمام والجمهور وتقرر اتباع هذا الاستحسان عند طبقات العلماء بالمغرب وجرى ملوك المغرب والأندلس على الاعتناء بحفلة المولد فلم يكونوا يغفلونها.

وكان السبق في ذلك الميدان للاحتفال الباهر الذي يقيمه كل عام بمدينة تلمسان السلطان أبو حم موسى الزياني وكان ملكه فيما بين 760 و791.

وكان الاحتفال يقام ليلة المولد بالمشور وهو ساحة القصر في استعمال أهل المغرب ويدعى إليه خاصة الناس وعامتهم فيكون المشور بالغاً نهاية الأبهة وأكمل مظاهر الزينة مفروشا بالزراشي الفاخرة وعليها ثمارق الجلد المغربي الرفيع قد حبتها الوسائد المغشي جلدها بالذهب واشت في أطراف المجلس الشموع العظيمة المزهرة ويجلس السلطان في صدر المجلس والناس حوله وهم في قريتهم منه على نسبة مراتبهم والخدمة في ثياب ملونة

بالباهرة سنة 633 فلما رأى عناية الملك بأمر المولد صنف له كتاباً سماه التنوير بمولد السراج المنير وقرأه بمحضره في موكب يوم المولد على كرسي الوعظ وذيله بقصيدة مطلعها: لولا الوشاة وهم أعداؤنا وصموا. فأجازه بألف دينار واتخذت تلاوته عادة للملك فكان كثيراً ما يقرؤه بنفسه وسمعه منه القاضي أحمد بن حلكان وجرى على عمله الملوك فذاعت مجالس تلاوة المولد بالمشور وكتب العلماء موالد كثيرة نسجاً على منوال الحافظ ابن دحية.

وشاعت هذه العادة بالمغرب أواسط القرن السابع وكان أول من أدخلها أبو القاسم العزفي أمير سبتة من عام 647 إلى عام 677 وهو من بيت العلم والإمارة التي قال فيها أبو العباس المقرئ في أزهار الرياض: (بنو العزفي المشاهير الذين برزوا في ميدان السبق على الخواص والخصاهير وحاربوا رئاسة الدين والدنيا وقاروا بالمكانة السامية والمرتبة العليا).

وقد استحسّن رواج هذه العادة بالمغرب شيوخ المذهب المالكي به ومنهم

يطوفون عليهم بالمباخر والمرشات.

ويكون المشدود قياما بين يدي السلطان يترنمون بالمديح النبوي والزهديات وأول ما يتدنون بإنشاد قصيدة السلطان وكان ينظم كل عام قصيدة كما ينظم له الشعراء قصائد بتلك المناسبة تعرف عندهم بالميلاديات فمنها في بعض السنين قصيدة كاتبه أبي زكرياء بن خلدون.

ما على الصب في الهوى من جناح
أن يرى حلف عبدة وافتضاح
وفي بعضها موشح محمد ابن أبي
جمعة التاليسي الذي عارض به ليل
الهوى يقضان وطالعه:
في مدمع هــ

يسهل مثل الدرر
قد صبر الأحفان

ما أن لها من أثر

وقد ضمن جميع تلك القصائد الحفاظ أبو عبد الله التنسي في كتابه الذي سماه راح الأرواح، فيما قاله السلطان أبو حمزة من الشعر وما قيل فيه من الأمداح وفي آخر الليل يمد للحاضرين سماط فاجر يشهده الملك وينفض المحفل عند انبلاج الصباح.

ومن أبداع ما كان يزين تلك الحفلة المنجاة البديعة ذات التماثيل العظيمة من اللحن التي كانت تستعمل عندهم لمعرفة الساعات بالليل وقد يخرج بنا الإطراب في وصفها عن الموضوع فمن أراد التملّي من ذلك فليرجع إلى الجزء الرابع من نفح الطيب.

وإلى جانب هذه الاحتفالات الرسمية التي تقام لذكرى المولد من طرف الملوك تقام احتفالات أخرى خاصة يجعلها الناس في منازلهم لتلاوة المولد وأناشيد المديح ويظهرون لها علامات الفرح وشارات الزينة وتغدق فيها الصدقات وتؤدب المآدب.

وقد ظهرت هذه الاحتفالات بالمشرق في القرن السابع واستحسنها إمام الشافعية يومئذ الشيخ عبد الرحمان أبو شامة شيخ الإمام النوري واستمر تنافس الناس في إقامة الموالد ومبالغتهم في النفقة عليها حتى قرئوا الإنشاد فقر الدفوف ونفخ المزمار.

ولم يبلح صبح القرن الثامن إلا وقد حفر بالاحتفالات من الغلو ما كان داعيا

حصل للشيخ حالة وقام واقفا للحال
فاحتاج الناس كلهم أن يقوموا فقاموا
أجمعون وحصلت ساعة طيبة اهـ.

وقد ألزم الناس من يومئذ إنشاد
آيات الصرصري في مجالس المولد والقيام
عندها وكان ذكرهم الآيات ملتزما عند
الوصول إلى ذكر ساعة المولد ثم صار
بعضهم يجعل القيام لمجرد ذكر المولد.

وقد أتى القرن التاسع والناس بين
محيز ومانع مترددين في حكم إقامة الموالد
والقيام لها محتارين في ما تقيم الحفلات
المولودية من الأمور المتقدمة التي كانت
سببا لإنكار المنكرين حتى فاه أئمة القرن
التاسع الأعلام أمثال الحافظ السيوطي
والحافظ ابن حجر العسقلاني وابن حجر
الهيتمي بتأييد إقامة الموالد واستحسان
وصرحوا بأن ما طرأ على الموالد من
الأمور المنكرة يجب تجريد المولد عنها
ولا تكون قاضية على الأصل بالإبطال
واستخرجوا لذلك أدلة مستروحة من
السنة الشريفة وعلى ذلك بنى الحافظ
السيوطي رسالته البديعة (حسن المقصد

لإنكار كثير من العلماء إنكارا جرهم إلى
الإنكار على أصل إقامة المولد وكان في
مقدمة هؤلاء الفقيه المالكي تاج الدين عمر
بن علي اللخمي الإسكندري المعروف
بالفاكهاني المتوفي سنة 731 فكتب في ذلك
رسالة سماها المورّد في الكلام على المولد
وقد أوردها جلال الدين السيوطي بنصها
في كتاب حسن المقصد الآتي ذكره:

وقد دخل في عوائد المولد صدر
القرن الثامن عادة الوقوف لإجلال ذكر
النبي ﷺ وكان ابتداءها بالشام وأول
من فعلها الشيخ الإمام نقي الدين علي
بن عبد الكافي السبكي المتوفي سنة 756
في قصة أوردها ابنه الشيخ تاج الدين في
طبقات الشافعية بالعبارات الآتية حضر
مرة ختمة بالجامع الأموي وحضرت
القضاة وأعيان البلد بين يديه وهو جالس
في محراب الصحابة فأنشد المنشد قصيدة
الصرصري التي أولها. قليل مدح المصطفى
أخط بالذهب. فلما قال:

وإن تنهض الأشراف عند سماعه
قياما صفوفا أوجثيا على الركب

في عمل المولد) التي رد فيها على رسالة الفاكهاني المتقدمة.

وتقرر هذا الاستحسان عند علماء المسلمين وشاعت الموالد في غالب البلاد الإسلامية وكان لروساء الزوايا الصوفية بالمشرق والمغرب عناية زائدة بهذه الاحتفالات التي اصطبغت بأشكال مختلفة بحسب اختلاف الطرق الصوفية الراجعة لها تلك المعاهد واتخذ مشائخ الصوفية بحضر الاحتفال بالمولد مواعيد سيارة في الطرقات زيادة على مجلس التلاوة.

ولم تنزل هذه العوائد متوارثة بغالب بلاد الإسلام على نحو ما كانت عليه في القرن التاسع ولكن الظاهر أنه قد اعتراها فتور بالمغرب الأقصى منذ القرن العاشر فقد ذكر الأستاذ العلامة سيدي محمد الحجوي في رسالته المسماة اصفاء المورد في عدم القيام عند سماع بالمولد كتبها سنة 1337 ما نصه ولا كان عمل الموالد يحتفل فيه الكثير من الناس فيما أدر كنا وإنما ذلك في هذه السنة وما قرب منها.

